



1- الإيثار معناه: أن يقدّم غيره على نفسه في منفعة يبتغيها، ومصلحة يريدها وقد يتنناها ولكن عند اختلابها يقدّم غيره لمحبة لمن يعطيه، أو لإرضاء الله - تعالى -، أو لوقاية نفسه من الشح، وليكون له الفلاح والفوز عند الله تحقيقاً لوعده الكريم: {وَمَنْ يُوقَ شُحًّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

أو لصلاح الجماعة وتعاونها وتضافرها في تحقيق غاياتها، فإنه من المقررات الشرعية والاجتماعية أن من يعيش في جماعة متحابة تربطها المودة الواصلة، والرحمة الجامعة، لا بد أن يقطع كل واحد منها جزءاً من رغباته ليتلاقى الجميع، على ما يصلح الجماعة، ويعلي شأنها، وذلك لا يكون إلا بالإيثار، أو الاستعداد له للتلاقي النفوس وتألف، وتجمع على رضوان من الله، ولا يكون التنازع، ولا تتولد الإحن.

والأثرة: أو كما يعبر بعض العلماء: الأنانية، تكون **بألا يفكر إلا في دائرة شخصه**، ففي كل ما يطلب لا يكون في قلبه إلا أنا، فإنما قبل كل شيء هي الحكم، وهي الفيصل، وهي الغاية، كل ما في الوجود يريد أن يكون مسخراً لنفسه، لا أحد يشترك معه فيما يبتغيه، بل إنه لينغضن نفسه، أن ينال الناس ما ينال، ويصلوا إلى ما يصل إليه لا يريد مشاركاً فيما تحت يديه، ولا أن يكون ما عند غيره مماثلاً لما عنده، فهو لا يريد إلا الانفراد في الخير، وفي تحقيق الرغبات، وهو الأنانية يسيطر عليه، فهو يحقد على من يكون مماثلاً له أو يزيد عليه من الماضيين من له فضل حقد على من ذكره، وإذا قيل له إن فلاناً من أهل جيله له فضل في كذا حرك ذلك في نفسه عوامل الألم، وإذا كان يعمل في أمر جامع للأمة لا يحب أن يكون واحداً في صنعه ممن جمعهم الأمر، بل يريد أن يكون دائماً فوقهم لا نظير له بينهم، وقوله الفصل، وعمله هو الجسم، وهكذا يسيطر عليه قول أنا! إذا فعل أو تكلم، ولا يكاد المتبع له أن يسمع كلمة: نحن، إلا إذا كانت فخاراً أو تعظيمياً لنفسه، ولا تكون للجماعة معه أبداً.

2 - **إذا كان الإيثار هو تقديم الخير للجماعة، وتفضيل غيره على نفسه، وتقديم من يكون تقديم خير للجماعة**، لأنه ذو فضل لا يدخل به على قومه، فإنه إذا ساد في جماعة كانت هي الفاضلة، وكانت هي التي تسير في الطريقة المثلثة، وتتقدم متضافرة رافعة رأسها فوق الأمم.

ومن الحق علينا أن نقول إن من النفوس العالية من ترى في الإيثار إشباعاً لها، وتحقيقاً لرغبة من رغباتها، إذ أنها لفنائها في المعنى الجماعي، وفي الإلaf الاجتماعي تجد لذتها في أن تنفع جماعتها وتجد الخير لها في أن تؤثر من معها بالعيش ال�ني، والنعمة الرافة، والعزة الدائمة، فلذتها في نفع الآخرين أعلى من لذة الأناني بتفضيل نفسه، واحتاجان كل اللذائذ لنفسه، فلذة عمر بن الخطاب فاروق الإسلام في أن يحرم نفسه من الطعام ليعيش كما يعيش الفقراء إبان أزمة جائحة اعترب العرب أقوى من لذة الأناني من قصر اللذائذ على نفسه، وفي محيطها.

وإذا ساغ لنا أن نسمى فعل أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - في هذه الحال: أثره، فهي: أثرة الإنسان الكامل نبتت من علو المعاني الإنسانية عنده، حتى صارت عنده لذة الحرمان لنفع غيره، وصارت لذته معنوية مانحة وليس لذة مادية مانعة، وللذة المعنوية أدوم بقاء وأعم نفعاً، وأعظم وهي التي تتحقق مع الإنسان الكامل، فبينما الأنانية المادية تتفق مع لذات القردة والخنازير وغيرها من الحيوان، في العالي منه والنازل، وخير للإنسان الكامل أن يكون محروماً من لذات المادة، من أن يكون خنزيراً يخترعها، واعتبر ذلك بحال الشهيد المؤمن الذي يقدم نفسه لداء قومه وأهل دينه، إذا قلت إنه في إيثاره لقومه، وتقديم نفسه فداء لهم هو في ذلك أثر اختيار لنفسه مع كونه مؤثراً لقومه، فإنه لا تعدو الصواب ولا تجانيه، لأنه أراد ما عند الله، وأراد نفع الجماعة، وأي مأرب أعلى لذى المروءة والدين من أن يرى قومه ينتفعون بنعمة وجوده بينهم، وكذلك كان يفعل المجاهدون الأولون، يرون في الشهادة لذة فيطلبونها ويحبونها، لأنهم يريدون النفع لأقوامهم ولتحقق فيهم قول الله تعالى - : {وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحُقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 171].

3 - وإن الإيثار خلق الإسلام، دعا إليه، وحث عليه، ومدح الذين يتحلون به راجين ما عند الله - تعالى - ، انظر إلى قوله - تعالى - في وصف المؤمنين: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: 8]. أي: أنهم يقدمون الطعام إلى غيرهم من المحاويخ واليتامى، مع حبهم له ورغبتهم فيه، ولكنهم يؤثرون غيرهم، ويرون في ذلك لذة معنوية، وعلوها نفسياً.

ولقد وصف الله - تعالى - الأنصار الذين آتوا ونصروا بأن أحس أوصافهم هو أنهم يؤثرون على أنفسهم، فقال - تعالى - : {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

والآية الكريمة تشير إلى أن الإيثار ينشأ من قوة النفس وسيطرتها على الأهواء والشهوات، لأن الإيثار حيث لا يحس بالحاجة، والإحساس بالحاجة ضعف في النفس يولد الأثرة، فالأثرة تنمو في ظله، ولذلك قال - سبحانه - بأبلغ إشارة وأدق عبارة: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا...} [الحشر: 9].

وإذا كان الإيثار قوة نفس غالبت الشح فانتصرت عليه، فالأثرة ضعف نفسي أو هي ثمرته، إذ يغلب عليها الشح ويسيرها ويووجهها إلى دركة الحياة المادية التي تهوى معها النفس.

ولقد قال الله - تعالى - في وصف الأبرار الأقوباء على نفوسهم: {وَاتَّى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...} [البقرة: 177].

وهكذا نجد الإيثار قوة في النفس، وإحساساً بحق الناس، وهي غنى النفس الذي هو أعلى درجات الغنى، كما قال - عليه السلام - : (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)).

ولقد أقام النبي - صلى الله عليه وسلم - أول تعاون جماعي على الإيثار لا على الأثرة، لأن الإيثار يكون معه المودة والمحبة والائتلاف، والاختيار للخير دون الإجبار عليه، وكان ذلك التعاون الجماعي الذي نظم به النبي - صلى الله عليه وسلم -

الجماعة المؤمنة، في أول إقامة الدولة الفاضلة، هو بالإخاء بين المهاجرين والأنصار، والأنصار بعضهم مع بعض، والمهاجرين بعضهم مع بعض، وبذلك الإخاء في الله والمحبة في الله، وطلب رضوانه كان الإيثار، حتى إن الأنصارى كان يشاطر أخاه المهاجر، ماله، بل هم الرجل منهم يكون له زوجتان أن يطلق إداهما ليتزوجها أخيه المهاجرى بعد انتهاء عدتها.

وبذلك العمل الجماعي الذي سَنَّه محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَظَامًا قَائِمًا لَا يَنْتَهِي؛ بَيْنَ كِيفِ يَكُونُ الاشتراكُ فِي الْخَيْرِ، إِذَا قَامَ عَلَى الْأَخْوَةِ الْوَالِصْلَةِ، وَالْمَوْدَةِ الْرَّاحِمَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ حَدًّا، وَلَا تَحَاسِدَ وَلَا تَبَاغِضَ بَلْ يَكُونُ التَّلَاقِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَطَلْبِ مَا عِنْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَضْغَانَ وَلَا إِحْنَ، وَلَا عَدَاوَاتَ وَلَا بَغْضَاءَ.

4 - وإن الإيثار يكون ببناء الجماعات، فإذا تحلّى به القائمون على الشؤون العامة والخاصة، والآحاد في ذات أنفسهم، فإن الأمور تستقيم على ميزان الحق والعدل والنفع العام، فإذا كان القومون على الأمور التي يعود نفعها على الجماعة أو بعضها يؤثرون منفعة الناس على أهوائهم ومنافعهم الخاصة، فإنه يفتح العمل أطيب الثمرات، وتقوم المحبة بين الناس، فلو أن رئيس عمل ينسى نفسه، ويلاحظ القيام بالخدمة الكاملة في عمله ويشعر بأنه جاء لخدمة الجماعة، وتقديم أكبر قدر من الخير يستطيعه، لأنّج إنتاجاً حسناً، وما اضطربت المقاييس أمام الذين يعملون في رياسته، وعليهم أن يقوموا بحق طاعته.

ولو أن نظرة فاحصة اتجهنا بها إلى تعرف أخلاق القوامين على المصالح العامة، وأردنا أن نضع مقاييساً للصالحين، ومن دون ذلك لوجدنا أن أدق مقاييس هو ما روي عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندما سُئِلَ عن الأمير الصالح وغيره فقال: ((الأمير الصالح من يعمل للمؤمنين، وغير الصالح من يعمل لنفسه)) أو كما قال، أي أن: الأمير الصالح هو الذي يتجه في عمله إلى تحري مصلحة المؤمنين غير ناظر إلى مصلحته الخاصة وإن هذه النظرة هي الإيثار، ونظرة الأمير غير الصالح هي الأثرة، أو الأنانية، وإنك لترى ذلك واضحاً في أعمال الراشدين - رضي الله عنهم -، وأعمال أولئك الذين ظلموا من الأمراء في الماضي وسقوا الأرض الإسلامية بنجع الدماء، ووضعوا سبوفهم على عواتقهم فأصابوا بها مواضع البرء ومواضع السقم، كانوا ممن عملوا لأنفسهم، ولم يراعوا مصلحة الكافة، أقرأ سيرة عمر بن عبد العزيز، واقرأ أخبار الحاج بن يوسف الثقفي، وطبق المقاييس الذي وضعه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإنك تجده، واضحاً في عمل الرجلين، فعمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - كان أميراً مصلحاً، صالحًا، وال الحاج بن يوسف الثقفي كان غير صالح ولما مات وجدوا في محبسه عشرين ومائة ألف لا يعرف واحد منهم لماذا حُبس...

وإننا إذا تركنا الأثرة في الماضي وما يتصل بها من منازع، وطبقنا قاعدة الإيثار، فإننا نجد النجاح الكامل في تطبيقها ونجد أنه حيثما كانت الأثرة كانت مفسدة الأمور، وكان الظلم المردي وأكل أموال الناس بالباطل وضياع الحقوق، وفساد الذم، وأكل الرشا، وما من عمل يغلب الإيثار عليه إلا استقامت معه الأمور، وساد العدل، وقامت دعائمه على أساس صالحة قوية البنيان، ثابتة الأركان.

5 - وإن العصور التي تجد فيها الشح المطاع، والهوى المتبع، وتعصب كل امرئ لرأيه فاعلم أنها الأثرة تسير رافعة رأسها بين رجال الفكر، وذوي الرأي، وعندئذ تكون الفتنة، فإن من الناس من تدفعهم أثرتهم إلى الاستمساك بما يبدو لهم ولو كان خطأ، لأن تعصبه لفكرة تحت سيطرة الأثرة المقيمة يجعله لا يتنزل عن فكره، ولو كان محض الباطل، ومهما تكون حجة من يخالفه واضحة ببَيْنَهُ لَا يترك فكره ويحسب أنه تنازل عن شخصه، ونقص في تفكيره، ويحمله على أن يكون من الذين قال الله - تعالى - فيهم، وقد رأوا الآيات واضحة، فقد قال فيهم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْيَقْتَهَا أَنْفُسُهُمْ...} [النمل: 14].

وإنك إذا تبعت أسباب كفر الكافرين، وتعنت المستكبرين، وجنوح الأكثرين إلى الباطل، بعد أن تظهر ظلماته، لوجدت الأثرة هي التي سيطرت فاختفى الإيثار، وسيطر حب الذات.

وإن الأثرة تختم على القلب فلا يشرق فيه نور، وتعمى الأ بصار، فلا ترى، وتجعل في الآذان وقرأ فلا تستمع، فلا يعلو لحق، ولا

يصفى لصوته، ويكون ممن يقول الله - تعالى - فيه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقِ اللهُ أَخْذَتُهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِسَ الْمَهَادُ} [البقرة: 206].

وإن أي عمل لا يمكن أن يستقيم إلا كان الإيثار باعثه، ورغبة النفع هي الدافع.

6 - وإنه لأجل تكوين جماعة فاضلة يكون آحادها ممن يستمعون القول، ويتبعون أحسنه: لا بدّ من تربيتها على الإيثار فتألف الآحاد، ويكون المجتمع القائم على الإخلاص.

ولا يربّي الإيثار في النفوس إلا بمنع سيطرة الأهواء والشهوات، وجعلها الحكم الذي ترضى، فالآهواء والشهوات قريبات للأثرة، وهي لا تتربي إلا في أحضانها، وبغذاء من لبنها، فإن رأيت جوًّا تسيطر فيه الأهواء وتثار فيه الشهوات، فاعلم أنه الجو الصالح للأثرة المخربة للجماعات المفسدة للألم التي تهدم كل قائم، وتفرق كل مجتمع، وإن القرآن الكريم يصرح بأن فساد الأمم يكون بسيطرة الأهواء والشهوات، فقد قال - تعالى - : {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهُلِّكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهِا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقٌّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16].

وحيثما رأيت نظاماً يحيي إثارة الأهواء والشهوات، فاعلم أنه نظام قد احتوى على عوامل هدمه، ومقومات بنائه ومفرقات جمعه، وماله الانهيار لا محالة، لأنه يربّي الأثرة، وينمّي الإيثار.

إن الإيثار لا يوجد إلا مع الإخلاص، والإخلاص نور القلوب تشرق فيه الحكمة وتستقيم المقاصد، اللهم هبنا الإخلاص في أقوالنا وأفعالنا، ومقاصد حياتنا، وجنّبنا الأثرة في الآراء التي تتحقق صالحة الأعمال، والأثرة في الأفكار التي تجعلنا معجبين بأرائنا، ولو كانت هادمة لكل خير، والأثرة في إدارة شؤون الكافة التي تفسدتها، اللهم هبنا الاستقامة، وجنّبنا الاعوجاج، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا.

وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم.

المصدر: رابطة العلماء السوريين، مجلة لواء الإسلام، العدد الرابع السنة 24، ذي الحجة 1389هـ.

المصادر: